

الأديان في خدمة الإنسان

د . أوديت بيتي

جامعة السربون الجديدة - باريس -

ترجمة . الأستاذ عمر لحسن

معهد اللغة العربية وأدبها - عناية -

أولا : من هو الإنسان

لقد راود هذا السؤال الإنسان منذ غابر الأزمان ، وظل يضايقه . إن قدرة الإنسان الذاتية على أن يعيش تجربته عن طريق الفكر والتأمل وعلى مضاعفة التركيز والمثابرة ، وحماسه القلق تجاه العالم الطبيعي والغيبى الذي يحيط به ، يميزان الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى . فهل يمكن أن يكون هذا الجسم مسكنا لقوة داخلية خفية ؟ لقد قدمت الأديان وكذلك الاكتشافات العلمية - إجابات عديدة على هذا السؤال . فإذا سألنا الأديان التوحيدية ، مثلا ، فإننا نلاحظ أنها تولي عناية خاصة لخلق الإنسان ، ففي القصة الأولى من سفر التكوين ، يقول الله تعالى : « فلأخلق الإنسان على صورتي ... وليسطر على سمك البحر ، وطيور السماء ، والحيوانات ، وكل الحشرات التي تزحف على الأرض » (التكوين 26.1) و تضيف القصة الثانية من سفر التكوين : « حينئذ شكل الله الإنسان من طين الأرض ، ونفخ في مناخره نفس الحياة ، وأصبح الإنسان كائنا حيا » (27.1) أما القرآن ، فيخبر ، من جهته بما يلي : « وإذ قال ربك للملائكة : إني خالق بشرا من صلصال من حماء مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ، فقعوا له ساجدين » (الحجر 28. 29) فلما كان الإنسان ، في شكله الكامل ، هو جسم وروح ، فإن هذا الخبر من شأنه أن يولد أملا كبيرا لدى الإنسانية .

ثانيا : قوة الإنسان وضعفه

إن هذا الإنسان الذي نفخ فيه الله الحياة من روحه لكي يعمر الأرض كلها ، يولد في مفارقة عجيبة مفادها عظمة نفسه وقوتها من جهة ، وصغر المادة التي تحمل هذه النفس و قسارها و ضلالها من جهة ثانية . ألم تذكر مزامير الإنجيل بذلك ، في خطابها الموجه إلى اليهود والنصارى : « ما قيمة الإنسان لكي تفكر فيه ، و ما قيمة الكائن الإنساني لكي تهتم به ؟ لقد كدت أن تجعل منه إلها .. » (المزمارة 8 . 4) و هذا الإنسان نفسه « يشبه الريح و أيامه تشبه الطيف العابر » . (المزمارة 144 . 4) « ولما انحنى الله نحو أبناء آدم لكي يرى إذا كان من بينهم واحد عاقل ، واحد يبحث عن الله ، فلم يجد أحدا ، فكلهم تائهون ، وجميعهم ضالون ، فليس من بينهم رجل شريف ، لا أحد أبدا » . (المزمارة : 3.2.14) والشئ نفسه نجده في القرآن ، حيث . إن الأربعين سورة ، التي يظهر فيها لفظ " الإنسان " - وهو لفظ مشتق من كلمة " إنس " التي هي عكس الوحش والوحشية - تبرز الإنسان مخلوقا ضعيفا (النساء : 28) وكنودا (يونس : 12) وكفارا (إبراهيم : 34) ، وعجولا (الإسراء : 11) ومجادلا (الكهف : 54) وسهل التأثر (الرحمن : 3) ، ويدعو بالشّر دعاء بالخير ، (الإسراء : 11) ... ولكن لماذا حكم على الإنسان أن يعيش هذا التناقض ؟ لقد وتساءل الأدباء والفلاسفة والأطباء والمفكرون خلال قرون عديدة ، عن عظمة الإنسان فقد شبهه باسكال Pascal ضالته « بالقصب وهو ما في الطبيعة » . ولكن هذا الضعف لا يضاهيه سوى قوة نفسه ، ذلك أنه « قصب مفكر » و يقول باسكال لهذا الإنسان الرائع - والمنحل والمضطرب والمشوش كذلك - « فلتعرف إذن ، أيها الرائع ، ما هي المفارقة التي تخلقها لنفسك » (أفكار : 8.1) فما هي الدلالة التي نعطيها لهذا التناقض الذي يطور بداخلنا هذا الصراع الأبدي ؟ إننا نجد الإنسان يتساءل : كيف يحول هذا الصراع القيم إلى قفزة نحو التطور ، وهذه القوة الحية إلى أمل عارم ؟

ثالثا : عالم الإنسان الروحي

و هكذا يبدأ الإنسان صراعا طويلا من أجل التطور . و لكن الإنسان الشريف يلاحظ ، على مر القرون ، بأن التقدّم العجيب الذي أحرزه ، لا يخفّف القلق الجوهوي الذي يسكنه أمام الفظاعة التي يسببها هذا التقدم . حقيقة أن الطبيب يبعد المرض والموت ، وأن أدويته تخفّف الأوجاع و تهدئ الآلام ، وأن الجراح يستطيع أن يعيد الأجسام المشوهة إلى طبيعتها و يعوّض الأعضاء الفاسدة ، ولكن يبدو أن صراعه ضد المرض يولد ردود أفعال جهنمية تحرف مقاصد جهوده . فوفرة الخيرات و رفاهة المعيشة تدفعان إلى الشرّ ، و غياب المثل العليا يؤدي إلى اليأس و إلى المخدرات ، و الكفر يحدث لتفرقة التي تنتشر بين المؤمنين ، مؤذية إلى المواجهة بين الأديان . و هكذا ، فإن التطور اليومي لرجل العلم لا يقوم إلا بمضاعفة الألغاز ، وعندما ذهب إلى البحث عن الحقيقة المطلقة - هذه الحقيقة التي اختزلها على مقاسه لكي يستطيع احتضانها - تبين له أن مجال الأخلاق الشاسع و الأفكار الغيبية من شأنها أن تسمو دائما بالعلم ، وأن ترتفع به إلى العلى . و كيف نفسّر ، كذلك ، فشل كلّ محاولات المجتمعات الاشتراكية و الشيوعية و غيرها ، هذه المجتمعات التي كانت تطمح إلى تحقيق سعادة الإنسان في هذا العالم ، أدركت أنها ساهمت في زرع اليأس والحدق و البؤس ؟ و ماذا بقي من الإنسان الأوّل الذي قال : " الله ليكون خليفته في الأرض ؟ إن الوثائق التاريخية التي تذكرها الكتب المقدسة تزرّ بالقصص حول أبناء آدم الذين بحثوا عن الشرّ و أشاعوه في هذه الحياة الدّنيا قبل أن يغيبوا هم أيضا في هاوية الانحلال الأخلاقي . ألسنا نتكلّم إلى حدّ الآن ، عن الكوارث التي قد يولدها العلم العديم الأخلاق ، خاصّة عندما نشاهد مراكز الفساد الإنسانية ؟ و بالرغم من ذلك ، فإننا نجد ، في هذا القرن ، الطبيب و الفيلسوف و الباحث جون همبورغر يجدّد النقاش الذي يريده متفانلا في كتابه "الإنسان ، يوما ما" بقوله : حدث ، في يوم ما ، داخل العالم المعدنيّ الجامد ، وعالم النبات غير المدرك ، وعالم الحيوان الشرّس ، انفجار في العالم الروحي للإنسان ، هذا الكائن الحيّ المزود بوسائل الفهم والتصور والابتكار و التصرف . و يتميز هذا الإنسان بعقل مستقلّ ، و بحرية تلقائية ، متساميا بذلك بهذه الآلية التي تحمله .

يقول : « وهكذا ولد المفهوم الأخلاقي ، فكرة الخير والشر . وقد تحصل الإنسان على الكل ، ولكن في شكل بذور بكل قوة » . هذا ما قاله همبورغر الذي ذكره الكاردنال ألبير ديكوريري في خطابه الافتتاحي بالأكاديمية الفرنسية . ويواصل الكاردنال قائلا : « وهكذا ترسم معالم الواجب بالقيام بمعركة جديدة ، معركة عظيمة ، يكون رهانها احترام الفرد الذي احتقرته القوانين الطبيعية » . فالإنسان مدعو للنضال من أجل أن يفرض ، فوق هذه الأرض غير المبالية والعدوانية ، بصمة روحية تلقح في هذا العالم فكرة دخيلة ورائعة ، فكرة الأخلاق .

رابعا : الإنسان نسي الله

بعد برتيلو الكبير الذي كان يعتبر أن « العلم هو الذي يضع وحده القواعد الأخلاقية الراسخة » ، وبعد بانيفي الذي يؤكد أن « العلم هو الذي بإمكانه حل المشاكل الاجتماعية للإنسان » ارتفع صوت ألكسندر سولينتسين ليصرح « إذا قامت الثورة السوفياتية بقتل عشرات الملايين من البشر فلأنها قتلت قبل ذلك الإيمان بالله فالضمير الإنساني الذي حرم شعلته الربانية ، وهذا الانحراف هو الذي أدى إلى الجرائم الكبرى في هذا القرن » . تأتي الحرب العالمية لتتخرجسد أوروبا ، وهي ملأى بالطاقة الحيوية ، مدنسة بذلك ، كل المسيرين والحكام الذين نسوا أن هناك قوة مطلقة فوقهم . أما الحرب العالمية الثانية ، فإنها أضعفت قوى الغرب . أما سقوط الاتحاد السوفياتي ، فإنه أدى إلى قيام الصراعات الأخوية بكل فظاعتها ... ويواصل سولينتسين قائلا : « إن القرن العشرين كله تورط في قمع الكفر المزروع ، والذي من شأنه أن يؤدي إلى تدميره بنفسه » . وذلك أن نار الحقد سواء أكانت طبقية ، أم عنصرية ، أم إيديولوجية ، تنخر كثيرا من النفوس هذه الأيام ؛ وإذا أضرم هذا الحقد ، فإنه سيعم كل الكائن الحي ، بل الحياة نفسها ، عندما يصبح هدف الإنسان في الحياة ليس إظهار عظمة الله ، بل هدفه أن يأخذ مكان الله فوق الأرض . ومن هنا ، فمن منا لا يدرك أن المفتاح الجوهري لحياتنا ولعدمها ، اليوم والأمس ، يكمن في المفاضلة التي يجريها بين الخير والشر ؟ ومن منا لا يعترف مع سولينتسين أن « حياتنا لا تتمثل في البحث عن النجاح المادي ، ولكن عن تطور روحي جدير بهذا الاسم ؟ » . أليس هذا هو الطريق الذي التزم الإنسان أتباعه عندما كان هو الوحيد الذي قبل الأمانة التي اقترحها الله على السماوات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ؟ (الأخزاب : 72) .

و إذ كان الإنسان قد قبل المسؤوليات التي ترتبط بالسَّطرة على العالم ، فكيف نفسّر محاولات البشر لتخدير العقل الإنسانيّ إلا بأنهم نسوا الله ؟ .

خامسا : الديانات و ترقية الإنسان

ما هي الإجابات التي يمكن أن تقدّمها الديانات التي سهرت ، منذ البداية ، على العقل الإنساني ؟ هل يمكن أن نعتبر أن الأخلاق - وهي مستمدة في أغلبها من المبادئ الدينيّة - و التي ينادي بها العلمانيّون و الملحدون لتدبير و تنظيم المجتمع ، تساعد الإنسان على تحقيق ذاته ؟ هنا أيضا ، يجب أن نعترف ، للأسف بأن ضمير الإنسان يتضاعف و يتضاءل ، وأن التّربية التي يتلقّاها لاتحضّره للمشروع الضّخم الذي ينتظر الإنسانية . إذا كيف لنا أن ننتصر في حربنا من أجل الدّفاع عن الإنسان ، إذا لم نتلقّ التكوين المناسب لذلك ؟ إن المستقبل يتوقّف على التّربية التي سنعطّيها لأبنائنا ، و لذلك يجب أن تسجّل هذه التّربية في وثيقة الإعلان عن حقوق الإنسان . و يجب أن يكون على رأس برنامج هذه التّربية ، الإرادة بإعادة الاعتبار لحرّيّة الكلام الذي يكون الإنسان بدونه محروما من العقل الموجود بداخله ؛ هذا الكلام الذي لن تكون الكلمة فيه هدامة ، بل الكلام الأصيل الذي يحدّد مسار العقل ، و الذي يرشد النّفس الإنسانيّة و يساعدها على ممارسة الخير و قهر الشرّ . إنّه من السّذاجة أن نظنّ بأنّ التّربية الدينيّة يمكن أن تقتصر على معرفة و ممارسة الأخلاق التي تسهّل الحياة في المجتمع . إنّ الدين الذي يتمثّل هدفه في إقامة العلاقات و الروابط بين البشر و الله ، يعني كذلك الخوف و الورع . وفي هذا المعنى ، فهو يتضمن تعظيم الله ، و الصّلاة ، و ممارسة الشّعائر و الالتزام بها . و كلّ ذلك تأكيد على الاستعداد الذاتي للعقل للتّسامي و الإيمان المقدّس الذي بواسطته يزدهر الفرد ، ذلك أن الإيمان بالله ينعكس في قلوبنا مثل المرأة ؛ و إذا كان الإنسان المبتعد عن مرآته ميّالا إلى اليأس ، فإنّ الأمل مآله الانتصار ، لأن المرأة خالدة . و هكذا ، فإنّ التّربية الدينيّة يجب ألا تقتصر على جعل الفرد يتحدّى نفسه ليقدم مساهمته في الأخلاق الجماعيّة ، بل يجب أن تجعله يحاول باستمرار ممارسة حرّيّة قلقة تؤدي به إلى التّساؤل ، و التّفكير ، و التّدبّر ، و الصّلاة ، و التّوبة ... ، حرّيّة مدركة للمسؤوليات المرتبطة بممارسة الاختيار الحرّ .

حقيقة أن التكوين العلمي يساهم بقسط وافر في تربية الشباب مرسخا فيهم روح الصرامة والدقة في صياغة الفرضيات التي تتحقق منها التجربة المنطقية الدقيقة المبنية على القواعد الثابتة مؤدية إلى صياغة القوانين . نعم ، إن العلوم الإنسانية والفلسفة تؤدي بالشباب إلى التساؤل عن دوافع المشاكل الكبرى المرتبطة بحياة الإنسان ، وبالأحاسيس والانفعالات التي يعيشها بما في ذلك الأحاسيس الدينية ، وهي أقواها على الإطلاق ... أما العلوم الاجتماعية ، فإنها تتناول المشاكل التي تعترض الإنسان داخل المجتمع ، أما التكوين الأدبي ، فيقوي في الإنسان الروح النقدية ويطور رهافة الحس لديه ، ويجعله يدرك هذا العالم بعد أن كان محجوبا عنه في بداية الأمر ، وذلك بدراسة الإجراءات البلاغية التي تسهل تلمسه ، وتفتح له فضاءات الأفكار العليا والقيم الأساسية ، والتي بتساميها تسمح بالترباطات بين الأشياء وبإدراك وحدة الكون . ولكن ، بالرغم من هذا كله ، فإن الدور الرئيسي في هذه التربية يعود للتربية الدينية ، إذ إليها يعود الفضل في إتمام عمل المعلمين الآخرين ، بحيث تقوده إلى البحث عن المعرفة ، ومثلما كان يقول المربي الكبير آلان ، فإن « المعرفة تعني أن نفهم كيف أن أصغر شيء يرتبط بالكل وأن ليس هناك شيء يتحدد معناه في نفسه » . ويرجع الفضل إلى التربية الدينية في تطوير الصفات لدى الفرد ، هذه الصفات التي تجعل منه إنسانا حقيقيا . أما الممارسة الدينية ، فمن شأنها تقوية نفسه عبر علاقة حميمة مع الله . إن الصلاة والدعاء يساعده على تجاوز الصعاب ، وتقوية روحه على الصبر لتخطي الأوقات الحرجة من حياته ، ذلك أنهما يخففان من حيرته وقلقه ، ويهدئان من روعه ، من خلال إعادة ثقته بربه . أليس التوكل والصبر من الفضائل الهامة في الإسلام ؟ وهما اللذان تذكرهما الآية القرآنية : « إن مع العسر يسرا » (الشرح : 6) إن قوة الإيجار التي صيغت بها هذه الآية لا تضاهيها سوى شساعة الفضاء الذي تشمله والمدلولات التي تحتويها ؛ لذلك ، فإن الترجمة الفرنسية *Toute angoisse connaît quelque détente* لا يمكن أن تجعلنا نحس بهذه القوة وهذا الفضاء الرحب . لا يمكن أن نعتبر الأمثال - التي تزرع بها الكتب المقدسة - القوى الأكثر فعالية في ازدهار الإنسان وكماله ، بما تمنحه من حكم رفيعة ونبيلة ؟ أليست الدرع الواقي ضد ضعفه وهشاشته ، وأحسن الأسلحة ضد شكوكه وآلامه واليأس الذي يترص به ؟

ثم كيف لا نعتبر الحوار الذي تسمح الأديان بتأسيسه بين الرجال الصادقين والمخلصين ، من الفوائد التي تقدمها الأديان للإنسان ؟ إن الروح التي نفخها الله في الإنسان يمكن أن تسلك سبلا شتى نحو الإيمان ، كما قد يراوده الشك ؛ ولكن الإيمان والشك اللذين نشأ من نفس واحدة يتلاقيان ، إذا كان البشر قادرين على أن يعيشوا في أخوة إنسانية . أليس الحوار أضمن مرشد يستطيع أن يتجاوز ببني آدم كل اختلافاتهم ، ليتفطنوا إلى العقل الذي يوحدهم ويجمع بينهم ؟ وهو الذي يبقى ، إلى الأبد ، أفضل أساس لتحديد هويتهم كبشر ويميزهم عن الكائنات الأخرى . إن هذا الإنسان الذي خلقه الله على صورته ، وكلفه بأمانة الحفاظ على العالم ، يمكن للدين - بل يجب عليه - أن يساعده على تحقيق الإرادة الإلهية .

ألقيت هذه المحاضرة في المؤتمر السابع للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالإسكندرية أيام 10 إلى 13 ربيع الأول 1416 هـ الموافق لأيام 7 إلى 10 أوت 1995 موضوع الملتقى "دور الأديان في خدمة الإنسان".